العرب
الخميس 2020/02/13
السنة 42 العدد 11616

مونودراما الكابوس العراقي

«أبناء سومر» صامدون في وجه الموت

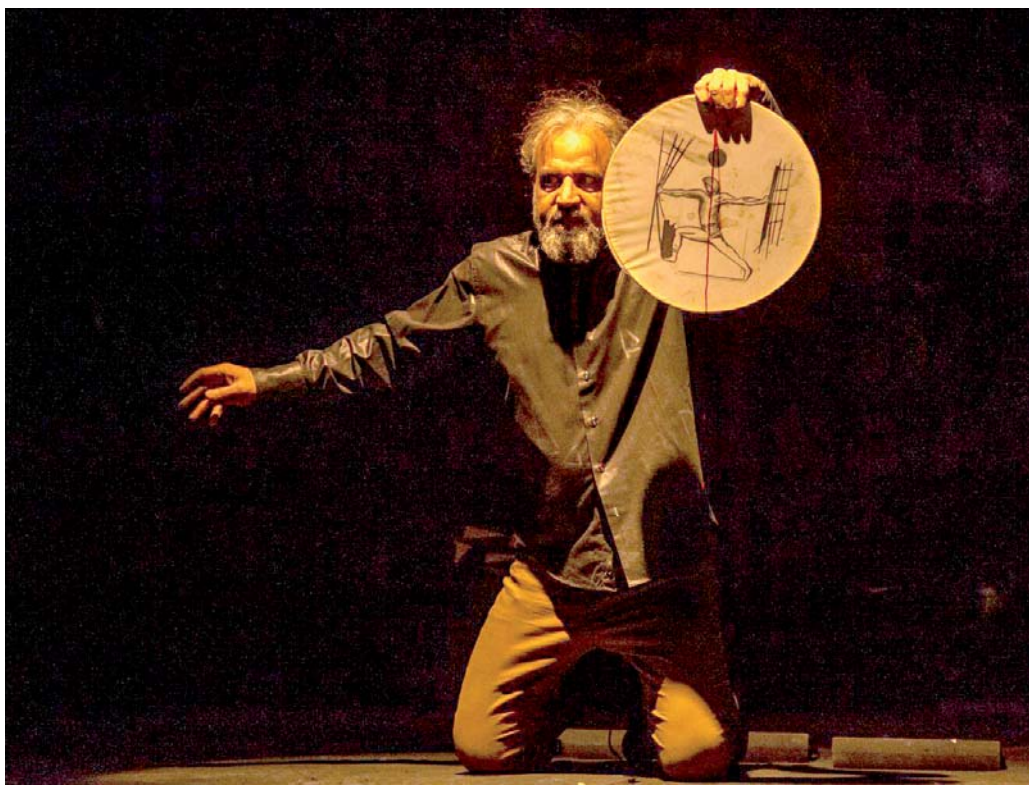

محاولات غير مجدية للهروب من أشباح الحاضر

أطلق العرض العراقي السويدي «سومريون» أو «أبناء سومر» الذي شهدته القاهرة ضمن فعاليات مهرجان أيام القاهرة الدولي للمونودراما، صرخة مدوّية برائحة مياه دجلة والفرات الممزوجة بالدماء، وفجائع أهل العراق الراقصين على حافة السكين.

شريف الشافعي
كاتب مصري

القاهرة – تستمد عروض المونودراما وهجها وحيويتها من خلال براعة الأداء التمثيلي الفردي المتفوّق في المقام الأول. وهو نابع من قدرات ممثل واحد يؤدي العمل ويملأ فضاء العلبة المسرحية، إلى جانب عناصر المسرحة الأخرى من نص وسينوغرافيا وحركة وموسيقى وإضاءة وغيرها التي تبرز هذا الأداء الفردي وتوفّر سبل تميّزه.

وجاءت عروض الدورة الثالثة من أيام القاهرة الدولي للمونودراما التي اختتمت، الأربعاء، لفرق مصرية وعربية وأجنبية على مسارح القاهرة المختلفة حافلة بالتنوع والزخم والمزج الواعي بين الجماليات الفنية والتقنيات المتطوّرة والرسائل المضمونة بأبعادها الفردية والاجتماعية، وعمقها الإنساني العام.

سفر التكوين

على الرغم من قسوة الواقع، فإن هناك ما يستحق التضحية والتحمّل والمقاومة في أرض لا تقبل ديمومة الجفاء والجفاف، فالصبر على البقاء هو الاختيار الذي لا حياد عنه حتى قيامة العراق.

هذا ما طرحه عرض المونودراما "سومريون" (أبناء سومر) عبر ثلاثين دقيقة على مسرح البالون بالقاهرة، من تأليف قاسم حميد وسلمان داود محمد، وسينوغرافيا وإخراج وتمثيل علي ريسان، الذي اشترك كذلك في صياغة النص، وموسيقى خالد ربيعي، وإضاءة أكرم مصطفى.

وجاء النص المسرحي رصينا، وهو مكتوب بلغة عربية سلسة فيها من الشعر مجازاته وخيالاته وبعض إيقاعاته ومن لغة الحياة كذلك اقتصادها ومباشرتها في مواضع لا يفيد فيها غير اليقين والاعتراف بالمآسي والحقائق المفزعة، وساعد هذا النص المركّب على استيعاب حمولة متعددة المستويات والدلالات، ففتح ببراعة جرح الواقع المعيش على تاريخ العراق برمته، القريب والبعيد، باعتباره جرحا كبيرا متصلا.

وقادت طبيعة النص الأداء التمثيلي وسائر مفردات العملية المسرحية إلى صيغة بدت ملحمية، فالعمل ينطلق من مكان وزمان محددين هما واقع العراق الحالي في ظل ويلات الحروب والانقسامات المذهبية والسياسية، لكنه متشعب التفاصيل والإسقاطات إلى أبعد الحدود، وهو ما تجلى للوهلة الأولى بمجرد مطالعة عنوان العرض، المحيل إلى الجذور السومرية البابلية، وحضارة ما بين النهرين.

أراد صنّاع العرض تقديم عمل دسم، مرويّ بكل عصارات دجلة والفرات من مياه ودماء وأحبار وصفحات لا تبلى من سفر التكوين، ومحطات لا نهائية لرحلة الدم والتراب والمشي الإنساني الخطر بأقدام من غمام لا تتحمل أشواك المعترك، فيما الأحمر القاني يتصبّب من كل حدب وصوب، ويسكن كل شيء، حتى حبات المطر وذاكرة النخيل والشجر.

اعتمد العرض على الطاقة الاستثنائية للأداء التمثيلي، الذي جاء مركّبا أيضا، فلم يعتمد على النص الثري وحده. وإنما اتكأ على الأداء الحركي والتعبير الجسدي بالملامح والإشارات والصيحات والغناء الفلكلوري الشعبي إلى جانب تصوير مشاهد الفزع والرعب ومواجهة الأعداء الحقيقيين والمحتملين والأشباح السوداء والخفافيش التي ملأت سائر الدروب والآفاق والمنافذ.

صوّر العرض الحرب باعتبارها أم الهزائم والمآسي، وجاء تجسيدها على المسرح كحالة طقسية متكاملة، فأصوات طلقات الرصاص لا تتوقف، والأدخنة تنبعث بكثافة إلى درجة أن المتفرّجين يتلمّسونها ويشمّونها في القاعة الصغيرة، والطبول والأجراس تجلجل، وجميع محاولات الاحتماء والهرب لتفادي المصير المظلم باءت بالفشل، فالمواجهة محتومة.

وتعمّق العرض، أيضا، في تحليل كيمياء هذه الحروب التي وصلت بالعراق إلى هذا الحدّ من التشرذم والتفتت، محيلا إلى أن الخراب المقيم ليس وليد صدفة، وإنما هو مصنوع صناعة متعمدة بفعل الخيانات، وبأيدي هؤلاء الذين يرتدون أقنعة ويحملون أسماء مستعارة، مدّعين شعارات برّاقة، ويوتوبيا خيالية يجنون من ورائها حصاد شرورهم كمكاسب مادية وعينية تخصهم وحدهم، فيما يدفع الشعب الثمن دائما.

لم يتوقف عرض "أبناء سومر" عند الطرح السوداوي أو الرؤية العدمية، وإنما اتخذ الصفحة الأخيرة المحترقة في سجل العراق نافذة للإطلال على بقية السجل الحافل بالخميرة الإنسانية النشطة الخلاّقة، التي رسمت حضارة العراق، بما يعني قدرة أبناء "أوروك" (مدينة الحضارة السومرية القديمة على ضفاف الفرات ومهد ملحمة جلجامش) على تجاوز أحزانهم، والسعي إلى اقتناص غد أفضل، بالصمود والإصرار على الحق في الحياة والسلام والمعرفة والخيال.

اقتناص الغد

وسّع العرض دائرة أفكاره ومجالات رموزه وانشغالاته خارج الشأن العراقي، فشملت كذلك ما هو إنساني مشترك، حيث تطرّق إلى تعرية أساليب الزيف والتدليس والدعاية الكاذبة، الدينية والسياسية وغيرها، بهدف سحق إنسانية الإنسان وتغييب القيم النبيلة والمشاعر الفطرية البريئة، وإحلال الكوابيس محل الأحلام، وتحويل الحكايات والأساطير إلى سطور جافة مقتضبة تتحدّث عن حقيقة واحدة في الحياة، هي رحيل الشهداء.

كما نسج "أبناء سومر" من خلال قماشة متماسكة مادة مكثفة، بصرية سمعية حركية، للألم والحزن، بعد تحويلها إلى فن مستساغ يستنهض الهمم من أجل مواجهة الدمار في "مختبر الوجع"، بحد تسمية العرض للحيّز العراقي الضيق المتاح، الذي بدا كأنه سجن يضمّ من تبقوا على قيد الحياة. بينما راح الشعراء "يلحسون حليب القنابل" خارج الواقع الممكن، ويكتفون بالتحسّر على الماضي "في وقت ما، كان عندنا قمر لا يعرف الأفول".

انسجمت مقومات العرض مع بعضها البعض، متفاعلة مع النص والأداء التمثيلي، فجاءت المنظومة في إطار هذه "الفخامة" المقصودة، التي لم تخل من مبالغات للإصرار على توصيل الرسالة "الصرخة".

واتسقت صيحات بطل العرض مع الموسيقى الصاخبة المشحونة بأصوات الرصاص وطبول الحروب وصهيل الخيول، وألسنة اللهب، ودوامات الدخان، والشموع الصغيرة المزروعة في الأرض، وكشافات الإضاءة التي بلورت نقاط الصراع. وعمدت إلى تعرية ملامح الوجه لكشف المشاعر والتناقضات الإنسانية المتلاحقة في رحلة الفزع والصمود إلى آخر قطرة دم متاحة.

لقد وصف بطل العرض، ذو الـ43 شظية التي تعني سنوات عمره، بلاده بأنها تلك التي تأكل أبناءها. لكنه أبدا لم يتخل عنها وهو يتقلب في السكون المروّع، فهو بوصفه أول الحكايا وآخر القصائد، مسؤول مع رفقائه عن أن تعود بلاده لتكون مظلة الدفء والأمان والطمأنينة، وواحة الوعي والحضارة والحرية والإيمان "سنعبر من ثقب، سنتجاوز الخيانات، ونلفظهم، ونعيد الأشياء لطبيعتها".

عروض مهرجان أيام القاهرة الدولي للمونودراما جاءت حافلة بالتنوع والمزج الواعي بين الجماليات الفنية والتقنيات المتطوّرة

البطالة والهجرة السرية في تراجوكوميديا مغربية

فيصل عبدالحسن
كاتب عراقي

"جا وجاب" كوميديا شعبية مغربية تدور أحداثها حول حياة المواطن قاسم المازوزي الذي أدى دوره محمد الجم وما عاشه وتعيشه أسرته من ظروف معيشية صعبة، لكنه يستقبل حوادث الحياة بالنكتة والنقد اللاّذع والأمثال الشعبية والضحكات الساخرة.

والمسرحية التي عرضت على مسرح محمد الخامس بالرباط مؤخرا، من تأليف محمد الجم وإخراج عبداللطيف دشراوي وتمثيل مليكة العماري، نزهة الركراكي، سعاد خيي، كريمة خطوري، الهاشمي بنعمر، عبدالقادر بوزيد ومحمد بن البار.

الحذاء المثقوب

سبق لـ"جا وجاب" أن عرضت في أكثر من عشر مدن مغربية، علاوة على مسرح المنستير بتونس، ومسرح "أنيار سُور سان" بضواحي باريس بفرنسا، حيث بلغ عدد عروضها إلى حدّ الآن أكثر من 250 عرضا في داخل المغرب وخارجه.

و"جا وجاب" هي المسرحية السابعة لفرقة المسرح الوطني المغربي بعد ستة عروض سابقة ناجحة طوال العقد الماضي، كـ"وجوه الخير"، "قدام الربح"، "ساعة مبروكة"، "الرجل الذي"، "جار ومجرور" و"المرأة التي".

تنطلق المسرحية مع قاسم المازوزي (محمد الجم) وهو يمارس حياته البائسة، متجوّلا في شوارع طنجة، حيث يتعرض لحادثة في الطريق، وهو المواطن غير المحظوظ دائما، لكنه مع ذلك يكسب ودَّ الجمهور منذ اللحظة الأولى، إذ يشعرون بالتعاطف وهم يشاهدون تباعا على الخشبة المصادفات السيئة التي تعرض لها المازوزي في حياته.

ويصف "أمين" (عبدالقادر بوزيد) لزوجته "أمينة" (سعاد خيي) الحادثة التي وقعت للمازوزي بقوله "إن شاحنة ضخمة مرَّت بالقرب من المسكين قاسم بسرعة كبيرة، ممّا تسبب مرورها بريح قوية دفعت المسكين، وأسقطته أرضا، فاصطدم رأسه بالرصيف، ولذلك فهو مصدوم ممّا حدث له، ولا يعرف أين يقع منزله ليعود إليه، ولا من هو؟".

المسرحية ناقشت قضايا الشارع، الاجتماعية، وقضية العنوسة، والبطالة، وفساد بعض أصحاب المال، والهجرة السرية

وذكر لها أنه قرأ بطاقة المُصاب الشخصية عقب الحادثة، فعرف أن لقبه المازوزي، وهو ذات لقب عائلته. وذكر لزوجته، بأنه سيحضره معه إلى "الفيلا" وسيكون ضيفا عليهم لأنه من أقربائه. فتفرح أخت زوجته الأرملة "بديعة" (نزهة الركراكي) بهذا الضيف غير المتوقّع، وهي منذ مدة طويلة تبحث عن زوج وسيم يخلّصها من وحدتها ويقاسمها حياتها وبيتها وثروتها.

ونتعرف من خلال مشاهد المسرحية على أمين الذي استضاف المازوزي بعد الحادثة، فهو مدير بنك يسكن في فيلا أخت زوجته الأرملة، ويبحث عن فرصة ما ليستقل مع زوجته وابنته "سناء" بسكن خاص بهم، إذ أن حياتهم متقلبة مع شقيقة زوجته، فهم لا يعرفون متى يملي عليها مزاجها طردهم من بيتها.

وبعد أن عَرّفَ أمين ضيفه بأفراد عائلته "كابن عم له" حاول أن يعرف أشياء عن حياة ضيفه وقدراته المالية، لغرض التخطيط للاستفادة من عقد صفقة معه يستطيع أن يوفّرها له في البنك الذي يعمل فيه. ومنذ البداية قال الضيف الذي كان يلفّ رأسه بلفافة بيضاء بسبب الحادث الذي تعرّض له، عندما حاول خلع حذائه حتى لا يطأ سجّاد أرض صالون الفيلا بحذائه.

وعندما منعه أمين من فعل ذلك. قال له المازوزي ساخرا، وبلغة أهل الشارع "إن بعض الضيوف لا يجرؤون على خلع أحذيتهم عندما يزورون بيتا ما لأن جواربهم مثقوبة، أما أنا فجواربي سليمة، ولكن حذائي هو المثقوب". وكركر ضاحكا. فخاب أمل أمين، من خلال تأكّده أن ضيفه فقير، ولا يملك مالا أو عقارا يمكن مشاركته فيه من خلال صفقة بنكية يتولاها بصفته مديرا لأحد البنوك المانحة للقروض.

شابلن المغرب

بعد تفكير قصير رأى أمين في ضيفه قاسم المازوزي فرصة مناسبة لعقد صفقة بتزويجه أخت زوجته العجوز بديعة، التي تنتابها بين الحين والآخر نوبات إغماء، كلما بذلت جهدا بحكم كبر سنها، وتكرار مشاركتها لابنة أختها الشابة سناء في الرقص العنيف، كلما صدحت موسيقى أو أغنية من المذياع أو سمعتها تردّد كلمات إحدى الأغنيات المغربية للتسرية عن نفسها.

كان هدف خطة أمين أن يضمن لنفسه البقاء وزوجته وابنته في الفيلا بدلا من أن تتزوّج بديعة المُسنّة شخصا غريبا لعوبا يستحوذ على عقلها وقلبها. ويوغر صدرها عليهم، فتطردهم من سكنها، خصوصا بعد أن عرف أن ضيفه المازوزي أرمل أيضا، ولا يزال يعيش على سجيته كحال أبناء الريف الطيبين. ويمكن الاطمئنان إلى أنه سليم الطوية تماما، وأفضل مرشح للزواج من بديعة، وقد أوهمه أنه ابن عمه لأنّ لهما ذات اللقب "المازوزي".

مسرحية "جا وجاب" من نوع الفودفيل، استخدم فيها مؤلفها محمد الجم التراث الشفهي المغربي في نصه من أشعار شعبية، وأغنيات فولكلورية، وأخرى من ستينات القرن الماضي، وأقوال من حكمة الأجداد وأمثالهم.

وناقشت المسرحية قضايا الشارع، الاجتماعية، وقضية العنوسة، والبطالة، وفساد بعض أصحاب المال، والهجرة السرية، والعلاقات الأسرية بكوميديا راقية. فنقلت حواراتها حكايات ومفارقات ضاحكة، الطرف الرئيسي فيها قاسم المازوزي وهو أحد القادمين من قاع المدينة المحملين بثقافة الشارع، ليوجه أصابع الاتّهام في كل حكاية للفاسدين ممّن يتولّون الشأن الاجتماعي والسياسي في مدينته.

المسرحية من نوع الفودفيل، يستخدم فيها مؤلفها محمد الجم التراث الشفهي المغربي وأغنيات فولكلورية وأقوالا من حكمة الأجداد

وطرح مأساته الشخصية من خلال حكاية ولده الذي درس، وحصل على شهادة جامعية بالرغم من فقر عائلته، ولكن عقب تخرجه لم يجد وظيفة، فشعر بالغبن، وزيَّن له بعض السماسرة الهجرة السرية. وقبل أن يمضي إلى حتفه في تلك الهجرة أرسل لوالده رسالة من عدة كلمات قرأها قاسم المازوزي على مضيّفيه بصوت أب مفجوع، حيث قال الابن في رسالته الأخيرة "لن أعود يا أبي حتى أستطيع الإنفاق على نفسي".

واختفى الابن بعد هذه الرسالة، كما ذكر المازوزي لمضيّفيه، وقد نجح الممثل محمد الجم في هذا المشهد نجاحا منقطع النظير، وهو يمثل دور الأب المكلوم الفؤاد، المفجوع بفقدان فلذة كبده، إذ حوّل المشهد إلى تعزية حقيقية في رثاء ابنه المفقود.

والمعروف عن الفنان المغربي المخضرم محمد الجم أنه صاحب خبرة قديمة في فن الكوميديا، ويسميه البعض بشارلي شابلن المغرب، لكن من خلال هذا المشهد استطاع أن يقدّم دراما راقية، وبذات النجاح في تقديمه لأدواره الكوميدية. ولن ينسى الجمهور تلوُّن صوته ببحة البكاء، واتسام حركاته بفقدانه لاتّزانه بفعل الحزن الشديد، ممّا نقل للجمهور بصدق فني وجع وفجيعة فقدان الأب لابنه.

العرض يستلهم التراث الشفاهي المغربي والأشعار الشعبية